

مكانة الفنون الجميلة

العظماء الذين يعرف لهم التاريخ فضلهم من أجل العقيدة والخلق والسلوك التويم فيحفظهم في سجل الخلود .

ولكن الناس في عصور الظلمات وفترات التحريف الديني، وسيطرة الجاهلدين على شئون الحياة قد شوهوا جمال هذه الفنون، وطعنوا فيها، ورحلوا عليها كلها حملة شعواء، بحجة أن الأديان لا ترضى عن هذه الفنون، مع أن الحق ينادى بأن الله أباح لعباده الطيبات، وأجاز لهم أن يتمتعوا نفوسهم بكل طيب طاهر من القول والتسلية، مادام لا يتعارض مع عقيدة، ولا يؤدي إلى وثنية أو إشراك، ومن العجيب الذي يجب أن يذكر هنا أن بعض رجال الدين الإسلامي المشهورين بالورع والتقوى كالإمام الغزالي مثلاً والإمام الزهري قد دافعوا عن العناء والموسيقى دفاعاً مجيداً، وشرحوا للناس مبلغ تأثيرهما في تهذيب الأخلاق وإصلاح الطباع . .

وفي هذه الفترات المظلمة التي تصاب فيها الأمم بالضعف والخور وسوء الفهم اعتقد الناس في الفنون الجميلة اعتقاداً سيئاً، فحاربوها واستخفوا بها وأعرضوا عنها، كما سخروا من أصحابها، وعدوهم من رعاي الناس وغوغاء المجتمع، وليس بعيد عنا ذلك الزمن الذي كان المجتمع يعد فيه الصالحين رجلاً حتميراً، وبعد الأديب رجلاً صعلوكاً . وبعد الشاعر رجلاً شحاذاً، حتى سوات لبعض الناس نفوسهم أن يمتزوا زواج بناتهم من أصحاب هذه الحرف مهما كانت منزلتهم، وقد جر هذا الظن السيء على أصحاب الفنون الجميلة الفقر والسكران، والجوع والحرمان، مع عظم رسالتهم في الحياة إذا استقاموا . .

أما اليوم وقد نهضت الدولة نهضتها، وأخذت الأمة العظيمة الصريزة طريقها إلى المجد والعظمة، فقد تغير الحال وتبدل الأمر، وأصبحنا نرى الفنون الجميلة مثلة في الشعر والكتابة والصحافة والرسم والتصوير والتثيل والموسيقى

ليس الإنسان في حياته هذه مكوناً من لحم ودم فحسب، ولا يمكن حيواناً كسائر الحيوانات، بل هناك في المرء ما هو أهم من هيكل العظام وشرايين الدماء . هناك القلب والعقل، والروح والشعور، والإحساس والعاطفة ؛ هذه الهبات الربانية الثمينة تحتاج إلى غذاء ودواء غير غذاء القوت ودواء الطعام : ولذلك يحس الإنسان في كثير من الأحيان بجوع قتال، ليس مصدره خلو المعدة من الطعام، أو حاجة البدن إلى الغذاء، بل مرجعه إلى جوع في العاطفة، ونقص في اطمئنان القلب واستقامة الشعور ! . ولذلك هدى الخالق سبحانه بني البشر إلى ينبوع الغزير الدائم الذي يفيض على القلب بالمسرة، وعلى الروح بالبهجة، وعلى العاطفة بالسمو والعلو، وعلى الشعور بالهدوء والاطمئنان ؛ ذلك ينبوع الساهر الجميل هو الفنون الجميلة النقية التي تتمثل في الصوت الرائع الجذاب، أو النغمة الحلوة المنسقة، أو القطعة الأدبية البليغة، أو اللوحة الفنية المتقنة، أو المسرحية المحبوبة الموفقة، أو القصيدة الرائعة المؤثرة ؛ وكأنما أراد الرحمن الرحيم، واهب الفضل والعطاء لكل موجود، أن يعين الإنسان على صخب الحياة ومتاعب العيش ومضايقات الدنيا، فأرشدته إلى هذه الفنون الجميلة، لتكون سلوته في همه، وأنيسه في وحدته، وسميره في وحشته، وسبب سعادته وهنائه عند ضيقه وشقائه .

وقد كان من الواجب على الإنسان في مختلف الأماكن من المعمورة، ومنذ الأزل القديم، إلى آخر الزمن الطويل أن يرحب كل الترحيب بهذه الفنون الجميلة، وأن يربها حق رعايتها : ويرفع من قدرها ومنزلتها، لما لها من عظيم الفوائد وجيل المنافع، ولا شك أنه قد كان بين الناس كثيرون جاهدوا من أجلها أفعل الجهاد، ودافعوا عنها أحسن الدفاع، وهؤلاء هم الجنود المجهولون والفنانون

أو تقلدوا الوظائف الكبرى هنا وهناك . مما يدلنا على ما احتلته الفنون الجميلة اليوم من رتبة سامية ودرجة عالية ..

على أنه يجب أن نتذكر على الدوام أن ديننا وعاداتنا وتقاليدها وقوميتها توجب علينا أن نتخذ من هذه الفنون وسيلة قديمة مجدية لزيادة الذوق السليم ، وإرهاف الحس الكريم ، وتهذيب الخلق القويم ، وأن نتخذ من الأسباب ما يجدها متفقة مع عقائدنا وأخلاقنا وثقافتنا العربية الشرقية . بدل أن نسرف في أمر هذه الفنون حتى نتخذها للهو والفجور ، أو اللعب الفاسد أو الترف الزائد أو التضييل الضار ، فيا أهل هذه الفنون الجميلة ، لقد ساق الله إليكم حياة كنتم محرومين منها ، ومجدا كان بعيدا عنكم ، وثراء عريضا لا يبعد ، وأموالا لا تعد ، وسهرة وصيتا ، فاتقوا الله في أوطانكم ، واتقوا الله في أبناء الوطن وأخلاقهم ، وابدلوا جهودكم كلها في النهوض بأخلاقنا وآدابنا ومشاعرنا ، حتى تكون أمتنا خير أمة أخرجت للناس ، والله يهدي الاملين !

ومهما يكن من شيء فإننا لا نستطيع أن نكتم أن الدين لا يرضى عن كثير من مظاهر الفنون الجميلة وموضوعاتها بأشكالها الحاضرة ، لما أصابها وأصاب أهلها من تحلل وانحراف ، وليس معز حداثتها وعنهم أننا نقبلها أو نقبلهم بسيئاتهم ، بل نريد أن ننص على خطر هذه الأشياء في الحياة أولا ، وأنه من الواجب علينا أن نحكم فيها كلمة الدين وأن نخضعها لخدمة تعاليمه . وذلك يمكن بتصفيتها من كل ما يتعارض فيها مع أصوله ، بعد أن ننظر إليها نظرة المسلم السامع الذي يعرف روح الإسلام . ويومئذ سنستطيع التوفيق بين مطالب الدين ومطالب الدنيا .

وليطمئن المترحم المتشدد ، فإننا عند إحكام النظر في تراثنا الإسلامي سنجد في مجالات التسهيل والترخيص الديني ما لا يتعارض مع أصول هذه الفنون المستقيمة ، وما نشأ العداء بين الدين والفن السليم القويم إلا عند الجمل بالدين وسوء الاستغلال للفن ، وقيد أن الألوان لفهم الدين فيها صحيحا واستخدام الفن لخدمته استخداما كريما .

أحمد الشرباصي

المدرس بمعهد القاهرة الثانوي

وغيرها تدر على أصحابها الأموال الكثيرة والأرباح الضخمة والغنائم المغرية ، وأصبحنا نرى هؤلاء الفنانين يحتلون مراكزهم في الهيئة الاجتماعية ، ويحملون الألقاب الرفيعة من المليك أو الحكومة ، ويشتركون في أعمال رسمية وشعبية لها مكانتها وخطورتها ، ويتزوجون من أرقى الأسر والعائلات ، ويختلطون بأرفع الطبقات ، ويركبون أغنى السيارات ، ويننون شاهق العمارات ، ويشرفون على توجيه الإصلاح ، وتظهر صورهم وأخبارهم في الصحف والمجلات والكتب كبطال ، وتحدث عنهم الأندية والمحافل ، حتى صار لهم ثراء عريض ، وجاه واسع ، وشهرة لا تحد .

وحسبنا مثلا أن نذكر في ميدان الشعر أسماء لامعة لها مكانتها وشهرتها مثل صالح جودت ومحمود إسماعيل وإبراهيم ناجي وخليل شبوب ومحمد الأسمر ، ولا داعي لذكر الراحلين المشهورين الخالدين مثل شوقي وخافظ ومطران والجنارم والبارودي . وحسبنا أن نذكر على سبيل المثال أيضا في باب الصحافة والكتابة أسماء عظيمة مشهورة مثل هيكل والعقاد وتوفيق دياب وطه حسين ومحمود أبو الفتح وكريم ثابت ومحمود تيمور وفؤاد صروف ، وفي باب الغناء والموسيقى أم كلثوم وعبد الوهاب وزكريا أحمد والسنباطي ، وفي التمثيل يوسف وهبي وحسين رياض وحسين شفيق ، وغير هؤلاء كثير مع اختلاف في المشارب والأهواء .

ولو اردنا الإحصاء أو الاستقصاء لطال المدى وتثعب الحديث ، فحسبنا أن نقول إن الشريط السينمائي مثلا أصبح يربح الآلاف من الجنيئات ، والحفلة الغنائية تأتي بإيراد يبلغ المئات ، والكتاب الواحد يربح مئات الجنيئات ، والمقالة الواحدة قد يكون ثمنها عشرة جنيئات ، وكذلك القصيدة الواحدة ، واللوح الفنية من رسم الرسام أو تصوير المصور قد تباع بعشرات من الجنيئات . وهكذا نرى أن الفنون الجميلة التي كانت بالأمس مهانة محقرة قد أصبحت اليوم جليلة الشأن خطيرة المكانة ، تصل صاحبها بأسباب الغنى والمجد ، والجاه والثروة ..

وقد استطاع كثيرون من الكتاب والصحفيين أن يصلوا إلى مناصب الحكم ومقاعد الوزارة وعضوية البرلمان